الحاجات، وكيف تُصنع، وكيف تعدّل أثمانها، وكيف يأتي الربح، ولماذا تقع الخسارة، فهذه كلّها ما كنت أعرف عنها غير ما يعرفه أبسط الناس. وجمعني صديقي بالإخوة الذين حدّثني عنهم. فتفاهمنا في الحال. وفي اليوم التالي كنت مبتدئاً بدرس الألف والباء من كتاب جديد عنوانه التجارة. فمن جمعني بصديقي ليجمعني بالإخوة التجار ويدخلني عالماً كان غريباً عني وكنت غريباً عنه؟ ما كان ذلك من وحيي ولا من وحي صديقي. بل من وحي حاجة هاجعة في نفسي كنت أجهل وجودها. ولكن الموجّه الأعظم كان يعرف ما كنت أجهل.

وماذا أقول في حياتي الأدبيّة والفكرية والروحيّة؟ إنّها مليئة بالأحداث التي ما كان لي فيها رأي ولا كان لي عليها سلطان. وحسبي أن أذكر منها «الرابطة القلميّة». فهل أنا قلت لذلك النفر من الأدباء: كونوا فكانوا؟ وهل أنا وقّعت الأزمنة والأمكنة التي وُلدوا فيها، ثمّ أودعت كلاًّ منهم مواهب بعينها، ثمّ سقتهم عاماً بعد عام ورتّبت حياتهم بطريقة كان منها أن اجتمعوا في فترة من الزمان لا قبل ولا بعد، وفي فسحة من المكان لا في سواها، فتعارفوا وتقاربوا وتفاهموا ومضوا يشقّون طرقاً جديدة في الأدب العربي؟ وهل من ينكر فضل «الرابطة» لتوجّه بدورها